من وجوه الإعجاز القرآني عند الإمام الباقلاني
. دراسة في جزئيات الوجه الثالث: النظم والتأليف والبلاغة .

ط/د. فاطمة زرّيفي

إشراف: د. بن نّعميّة عبد الغفّار

جامعة وهران 1

الملخص:

يعتبر الإمام الباقلاني من أشهر العلماء في عصره، وهو مجدّد المائة الرّابعة، فقد ألّف العديد من الكتب في مختلف المجالات العلمية، من بينها كتابه المشهور والذّي أحدث ثورة علميّة وأدبيّة وبلاغيّة في مختلف مؤلّفات العلماء الذّين جاءوا من بعده، المسمّى "إعجاز القرآن" حيث أفرده بالتّأليف، وقسّم وجوه الإعجاز على عكس ما قسّمها العلماء السّابقين إلى ثلاثة وجوه الأوّل (ما تضمّن من الإخبار عن الغيوب)، والثّاني (إخبار القرآن بقصص الأمم الغابرة من المتقدمين، وسير المتقدمين منذ عهد آدم عليه السّلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم)، ونُظر في هذا المقال إلى الوجه الثّالث الذّي أطال فيه وفصّل، من حيث تعلّقه (ببديع نظمه، وعجيب تأليفه، وتناهيه في البلاغة، إلى الحدّ الذي يعجز الخلق عنه)، لإظهار الإعجاز الرّبّاني في القرآن الكريم.

Abstract:

Imam baqlan is one of the most brillant scientis ts in his time he renevated of the hundrect he wrote about books in diffrent sciences.

One of them، his wel - kmoun book who made abiq cevalution in the nesct book written by the scienis tes that comme after him، named as "ijaaz el - quran"، it waz so umiqui، he devided the meracles diffrently، then the previous scientists، the first tellinq about the umion، the secoud one was the quran talking about the past mations from the applicant، bice graplies from "adam" to "muhamed" peace be upon them and the 3 rd one wich he put mcere details in his wouderful sy steme his، beautiful authcershuip and the fab ulous eloquence to the pceints euhere creatois are in a wou from it، to show gced miracles and power in the quran

مقدمة:

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله أمّا بعد:

القرآن الكريم كلام الله المقدّس أُنزل على سيّد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون بشيرا ونذيرا على الأمّة المسلمة، وليخرجها من الضّلال إلى النّور، وجاء القرآن الكريم مخالفا تماما لما عهده العرب، ممّا تعارفوا عليه من نبوغهم في الشّعر، والإتيّان بالقصائد الشّعرية التي كانت في الجاهليّة، وهذا ما جعل القرآن الكريم معجزا في حدّ ذاته، فعجز العرب عن الإتيّان بمثله، لقوله تعالى:﴿**عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ**﴾، وقوله تعالى أيضا: ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ** ﴾، كل ذلك ليبيّن الله سبحانه وتعالى معجزة القرآن الكريم الخالدة، الصّالحة لكلّ زمان ومكان، مهما تغيّرت أحوال الأمّة، ومن هذا المنطلق نتحدث عن الوجه الثّالث من وجوه الإعجاز الذي خصّص له الإمام الباقلاّني القول لما له من أهميّة بلاغيّة، وعلى إثر ذلك نطرح الإشكاليات التالية: من هو الإمام الباقلاّني؟، وماذا يقصد ببديع النّظم، عجيب التّأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه ؟، وما هي محاوره؟، وما هي الوجوه التي جعلها الإمام الباقلاّني تتفرّع منه؟. وفي الأخير إن وفقّنا فمن الله تعالى وحده وتوفيق منه، وإن أخطئنا فمن النّفس والشّيطان.

أولا: نبذة عن الإمام الباقلاني:

هو محمد بن الطّيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاّني المتكلّم على مذهب الأشعريّ من أهل البصرة،[1] وعالم من علماء العراق، أحد أوعيّة العلم،[2] وكان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرّياسة في مذهبه، وكان موصوفا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب.[3]

نشأ الباقلاّني في بيئة بسيطة ومتواضعة بالبصرة، ثم سكن بغداد التيّ عُرفت بالعلم، وموطن العلماء، إلى جانب كونها كانت تعجّ بالفرق الكلاميّة، والمذاهب الأصوليّة والفقهيّة، وكان الإمام الباقلاّني محبّا للعلم والمعرفة، فقد جرت له مناظرة مع عضدّ الدّولة البوّيهي، وجرت له أيضا مناظرات مع علماء النّصارى بين يدي ملكها في القسطنطينيّة،[4] ويقال أنّ ابن المعلّم تكلّم مع الباقلاّني يوما فلمّا احتدّ الكلام بينهما رماه ابن المعلّم ببقلاّء أعدّه ليحرجه به، فردّ القاضي الباقلاّني واضع يده إلى كمّه و رماه ببذرة أعدها له، هذا الموقف جعل من الباقلاّني ينتمي للطّبقة الوسطى من المجتمع.[5]

ثانيا: التعريف بالوجه الثالث (بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه).

يعتبر الباقلاّني من ألمع وأشهر العلماء الّذين اعتنوا باللّغة والأدب والبلاغة، فجاء كتابه "إعجاز القرآن" يتّسم بأبدع فنون البلاغة الظّاهرة في سرّ إعجازه، فأعطى الحظّ الوافر للوجه الثّالث والأخير من وجوهه بالشّرح الدّقيق الملمّ بجميع جوانبه، فتحدّث عن جمال نظم القرآن حديثا مسهبا، يتّضح منه مفهومه ونظريته في إعجاز القرآن الكريم، فوازن فيه بين القرآن الكريم وكلام العرب، لأنّ العرب قد شعروا في أنفسهم بما في القرآن الكريم من

سموّ عن قول البشر، فنسبوه إلى السّحر، فكأنّهم يقولون إنّ القرآن لا يستطيع أن يقوله إلاّ من أوتي قوّة خارقة، وليست من جنس قوى البشر.[6]

لكن الإمام الباقلاّني لم يرض أن يترك هذا الوجه على هذه الجملة كما أطلقه العلماء، فأراد أن يفصّل فيه ويكشف الجملة التي أطلقوها، فيحدّد أقسامه، ويوضّح سماته، وراح يحلّل الوجه البلاغي، وهو نظم القرآن الكريم، تحليلا دقيقا يكشف عن مدى إطّلاعه الواسع ودقّة فهمه ووعيه بمستجدات عصره،[7] ومن المهمّ التّنبيه أنّ هذا الوجه قد سبق إليه الرّمّاني، وشرحه بقدر من الاهتمام، فظهر واضحا في كتابه "النّكت في إعجاز القرآن".[8]

ومن الضّروري الإشارة إلى أنّ دراسة الباقلاّني للوجه الثّالث شملت تحليلا موسّعا باعتبار تخصّصه واهتمامه العلميّ، فاجتهد في إرجاع بديع النّظم القرآني المتضمّن للإعجاز إلى مجموعة وجوه تترابط فيما بينها جزئيات الموضوع، وفصّلها في عشرة وجوه، كلّها تعود إلى بديع نظمه، وعجيب تأليفه، وتناهيه في البلاغة، وقد أطلق الإمام الباقلاّني على الوجه بمصطلح المعنى:

المعنى الأول: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرّف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميّز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد،[9] وهو ما أعجز العرب على الإتيّان بمثله، مما دفع بعضهم إلى وصفه بالشّعر والسّجع.[10]

ثم يتحدّث الباقلاّني عن النّظم القرآني من حيث تأليف الألفاظ مع بعضها البعض، ويذكر أنّ الأسلوب القرآني، أو طريقة التّعبير فيه تختلف تماما عن الكلام المعتاد، فقد حصر فنون القول عند العرب إلى أنواع خمسة وهي: الشّعر . الكلام المعدّل المسجّع . الكلام المرسل . الكلام الموزون غير مقفىّ . الكلام المعدّل الموزون غير مسجّع.[11]

تبيّن من هذا الكلام أنّ نظم القرآن الكريم يختلف عن أي كلام من حيث شكله العام وأسلوبه وقالبه الظاهر، وأنّه نزل على غير ما عهده العرب من أنواع الكلام الموزون غير المقفىّ، وأصناف الكلام المسجوع والبديع.[12]

ويؤكّد الباقلاّني أنّ القرآن الكريم خارج عن هذه الوجوه، ومُباين لهذه الطرق، ويبيّن أنّه ليس من باب السّجع، ولا من قبيل الشّعر، لأنّ من النّاس من ادعى أن القرآن الكريم في حدّ ذاته شعر، وهناك من يزعم من الملحدة من أن القرآن الكريم يتخلّله الشّعر، وهناك أيضا من يقول من أهل الملّة أنّ القرآن الكريم كلام مسجوع، إلا أنّ القرآن الكريم يبقى وما يزال إلى الأبد أفصح كلام وأسجع، وهذه خصوصيّة ترجع إلى جملة القرآن الكريم وتميّزه.[13]

المعنى الثاني: منها ما يرجع إلى الفصاحة، فالعرب لا تملك من الكلام ما يشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتّصرّف البديع، والمعاني اللّطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتّناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة وغيرها، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، ويقول الباقلاّني إنّه قد تميّز القرآن الكريم بالفصاحة على كثرته وطوله المناسب، فاستدلّ من قوله تعالى:﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا**

مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[14]، قوله تعالى أيضا: ﴿أَوَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[15]، أخبر الله سبحانه وتعالى أن كلام الآدميّ إن امتدّ وقع فيه التّفاوت والاختلال، وينبّه الباقلّاني أنّ هذا المعنى غير المعنى الأوّل الذي بدأ بذكره،[16] ويقول في موضع آخر إذا عجز أهل ذلك اللّسان وهم العرب، فهم عنه أعجز، ومثلهم من كان من أهل اللّسان العربي، الّذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرّف اللّغة، وما يعدّونه فصيحا بليغا بارعا من غيره، فهو كالأعجمي الذّي لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن الكريم، إلا بمثل ما بُيّن في الأول،[17] ويَظهر الباقلاّني من خلال ما ذُكر مجموعة من الأسس العلميّة، التيّ تساعد في معرفة اللّغة العربيّة معرفة تامّة، وإدراك خصائصها وسماتها، وبذلك يعلّق على فهم العجم وغيرهم للإعجاز القرآنيّ بفهم العرب له.[18]

المعنى الثالث: منها ما يرجع إلى ما هو عجيب النّظم، وبديع التّأليف، فبيّن الباقلاّني فيه أنّه لا تفاوت ولا تباين في نظم القرآن الكريم، على ما يتصرّف إليه من الوجوه الّتي يتصرّف فيها: من ذكر القَصص والمواعظ والاحتجاج، والحكم ولأحكام، والأعذار والإنذار، والوعد والوعيد، والتّبشير والتّخويف، والأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيّم رفيعة، وسيّر مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها القرآن الكريم من الكلام البليغ الكامل، ومتى تقدّم الإنسان في صنعة الشّعر، لم تخف عليه هذه الوجوه، ولم تشتبه عنده هذه الطّرق، فهو يميّز قدر كل متكلّم بكلامه، وقدر كل كلام في نفسه، ويحلّه محلّه،[19] ومن خلال ذلك يمكن معرفة وجوه البلاغة العربيّة الّتي أوردها الباقلاّني، بكلّ علومها وأصولها وفروعها، وعدم الوقوف على إعجاز القرآن الكريم إلاّ مع معرفة بيّنة لوجوه البلاغة العربيّة، وتكوّنت له فيها ملكة يقيس بها الجودة و الرّداءة في الكلام، وبهذا يتّضح أنّ الباقلاّني قد تأثّر بفعل السّكاكي في الرّد على مسألة البلاغة والذّوق الفنيّ.[20]

ويدعو الإمام الباقلاّني أيضا إلى تأمّل شعر الشّاعر البليغ، فترى التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرّف فيها، فمنهم من يبلغ في القصيدة الرّتبة العالية، ولا يَنظم الرّجز، وهناك من النّاس من يجود في الكلام المرسل، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا بينا، وعند تأمّل نظم القرآن الكريم، وجد جميع ما يتصرّف فيه من هذه الوجوه على حدّ واحد، في حسن النّظم، وبديع التّأليف، والرّصف، لا تفاوت فيه، وكذلك تأمّل ما يتصرّف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطّويلة والقصيرة، فنجد الإعجاز في جميعها على حدّ واحد لا يختلف،[21] وأيضا عجز الكلّ عنه، ووقوفهم دونه حيارى، يعرفون عجزهم، وإن جهل قوم سببه، ويعلمون نقصهم، وإن أغفل قوم وجهه، رأينا أنّه ناقض للعادة، ورأينا أنّه خارق للمعروف في الجبلة، وخرق العادة إنّما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النّبوات، وعلى أن من ظهرت عليه، ووقعت موقع الهداية إليه، صادق فيما يدعيه من نبوّته،[22] ومن خلال كلام الباقلاّني حول الإعجاز، تبيّن أنّه مُطلّع على بلاغة البلغاء وخطابة الخطباء وبراعة الشّعراء وكتابة الكتّاب، فاكتشف فيها أنّه لا شيء يداني القرآن الكريم في بلاغته أو يشاكله في إعجازه.[23]

المعنى الرابع: منها ما يرجع إلى كلام الفصحاء الّذي يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل، والعلوّ والنّزول، والتّقريب والتّبعيد، فكثير من الشّعراء قد وصف بالنّقص عند التّنقّل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه مثل البحتريّ، فأهل الصّنعة اتّفقوا على تقصيره رغم جودة نظمه، وحسن وصفه، فإنّه يخرج من النّسيب

إلى المديح، وأطبقوا على أنّه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء، ففصّل الباقلّاني بعد تفسر هذه الجملة، وبيّن أنّ القرآن الكريم على اختلاف فنونه وما يتصرّف فيه من الوجوه الكثيرة والطّرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حدّ الآحاد، وهذا أمر عجيب، تبيّن فيه الفصاحة، وظهرت فيه البلاغة.[24]

لكن رغم فصاحة الباقلّاني وكلامه البليغ في جعل القرآن الكريم يصعد إلى قمم القرآن العاليّة، إلاّ أنّ لديه بعض الزّلاّت والنّقائص الّتي وقع فيها، وهو حين يرد موارد القرآن ويستقي من ينابيعه، لا تسعفه قدرته أن يتحمّل شيئا يعتمد به من روائع القرآن وعجائبه، فهو عند عرض آية من آيات القرآن الكريم يظهر بيانه متدفّقا بالمديح و الثّناء على كلّ حرف، وكلّ كلمة، وكلّ عبارة في الآية، مع جعلها في أفصح كلام و أروع بيان و في أجمل صورة، دون أن يشير إلى موطن الفصاحة ولا إلى مكان الرّوعة والجمال القرآني،[25] فمثلا عند ذكره لقوله تعالى﴿ **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾،[26] أليس كلّ كلمة منها في نفسها غرّة فإذا ألفت ازدادت حسنا[31]، لذلك يدعو الباقلّاني إلى التّأمّل في هذه الآية الكريمة، ثم يقول أنظر إلى هذه الكلمات الأربع، وهي مقاطع الآية من﴿**فَالِقُ الْإِصْبَاحِ**"،﴿**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا**"، ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**"، وجعل منها حجّة على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، في جمع السّلاسة إلى الرّصانة، والسّلامة إلى المتانة، والإكثار من الإطناب غير المملّ، ومن الإيجاز غير المخلّ،[27] لكن رغم ذلك كان لابد من الكشف عن مواطن الحسن والرّوعة في الآية الكريمة، بالكشف عن بعض أسرار هذا الاختلاف في التمييّز بين المتعاطفين، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾،[28] فقد جاء التّعبير بلفظ الفعل في إخراج الحيّ من الميّت، على حين جاء بلفظ اسم الفاعل في إخراج الميت من الحيّ، فإذا ما تُؤمل في هذه الآية الكريمة، ﴿**إنّ الله فالق الحبّ والنّوى**﴾: يشير إلى الحياة المتولّدة المتجدّدة تتفجّر في هذا الجماد، ﴿**الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾: هذه الآية تكشف عن تلك المواليد الحيّة متحوّلة من عالم الأموات إلى عالم الأحياء، ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾: تظهر هذه الآية قدرة الله سبحانه وتعالى وحكمته في جعل الحيّ من الميّت، ﴿**مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾، هذه الآية معطوفة على قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾، وتكون الجملة التيّ بينهما وهي قوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾، جملة كاشفة، وشارحة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾، وهذا هو الوجه الّذي كان ينبغي أن يُنظر فيه في هذه الآية الكريمة.[29]

المعنى الخامس: ومنها ما يرجع إلى نظم القرآن الكريم، ومدى وقعه في البلاغة وخروجه عن عادة الجنّ، وعن عادة كلام الإنس،[30] فالإنس والجنّ عجزوا عن الإتيّان بمثل القرآن الكريم، فقد قال الله عزّ وجلّ في شأنهم: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾،[31]

استدلّ الباقلاني من الآية العظيمة ليبيّن أنّه لا سبيل لنا إلاّ أن نعلم عجز الجنّ عن الإتيّان بمثله كما عجزنا نحن البشر،[32] وبالتّالي فعجز الجنّ والإنس سواء، وزيادة على ذلك فقد بيّن القرآن الكريم أنّ الله تعالى

حكا عن تفاوض الجنّ في القرآن الكريم حيث قال عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾،[33] وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾،[34] وقال الباقلّاني يجب أن نعلم عجز الجنّ عنه، كما علمنا عجز الإنس عنه.[35]

المعنى السادس: منها ما يرجع إلى الخطاب، ووجوهه من البسط والاقتصار، والجمع والتّفريق، والاستعارة والتّصريح، والتّجوز والتّحقيق، الموجودة في كلام العرب، وموجودة في القرآن الكريم الذي يتجاوز حدود كلامهم المعتاد في الفصاحة والإبداع والبلاغة.[36]

المعنى السابع: منها ما يرجع إلى المعاني التي تضمّنها القرآن في أصل وضع الشّريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدّين، والرّد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضا في اللّطف والبراعة، مما يتعذّر على البشر ويمتنع، فلا وجود للتّفاضل في البراعة والفصاحة، ولا يفضّل معنى أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتمّ،[37] فيرى الباقلّاني أن للكلمات في ذاتها فصاحة خاصة، وأن تخيّرها يدلّ على قدرة قائلها، وعلوّ بيانه، فإذا كانت المعاني البلاغيّة لجملة القول، ففي اختيار الألفاظ المتناسبة في موسيقاها، وفي نغمتها، وفي رنّتها قويّة أو هادئة على حسب المقام، فاللّفظ دخل في الاختيار، وأن ألفاظ القرآن غرّة في كلّ كلام، وأنّ لها رونقا، وأنّ لها دخلا في إعجازه، وأنّ صورة الكلمة ومخارج حروفها لها روعة ذاتيّة؛ لأنّ ذلك من عند العزيز الحكيم.[38]

المعنى الثامن: ومنها ما يرجع إلى الكلام، وتبيّن فضله ورجحان فصاحته، فتذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذها الإسماع، وتتشوّف إليها النّفوس، كالدّرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد، فنرى الكلمة من القرآن يتمثّل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرّة جميعه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميّزه وتخصّصه برونقه وجماله.[39]

وينبّه الباقلّاني إلى أنّه لولا هذه الوجوه التي بيّنها، لما تحيّر فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التّعمّل للمقابلة، والتّصنّع للمعارضة، ولم يرهم يشتغلون بالصّنعة، إنما عدلوا عنها لعلمهم بعجزهم، وقصور فصاحتهم، ورأى صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا ولم يشتغلوا بذلك، تحقّقا بظهور العجز وتبينا له، ويقول الباقلّاني أمّا في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾،[40] أي نقول مثل هذا القرآن الكريم وهذا غير ممكن، فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنّما خرج منهم، وهو يدلّ على عجزهم، فعلم الله عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدّعوى فقط.[41]

المعنى التاسع: منها ما يرجع إلى الحروف التي بنيّ عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا، وعدد السّور التي أفتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السّور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفا، ليّعلم من يتحدّى القرآن الكريم أنّ هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينْظمون بها كلامهم.[42]

ويشير الباقلّاني إلى أنّ القوم الّذين قسّموا هذه الحروف إنّما لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها بعد زمن طويل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ورأوا مباني اللّسان على هذه الجهة، لا يجوز أن يقع إلاّ من الله عز وجل، لأنّ ذلك يجري مجرى علم الغيوب، ولا يصحّ أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلاّ بأمر من عند الله تعالى، فكل ذلك يتوجّب إثبات الحكمة في هذه الحروف ومدى تعلّقها بالإعجاز.[43]

المعنى العاشر والأخير: منها ما يرجع إلى سهولة سبيله، وخروجه عن الوحشيّ المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلّفة، فجعله ذلك قريبا إلى الإفهام، يتبادر معنى لفظه إلى القلب، وتسابق المغزى منه عبارة إلى النّفس، فهو ممتنع المطلب، عسير المتناول، فليس يصحّ أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة، فيطلب فيه الممتنع، أو يوضع فيه الإعجاز، ليس فيه وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصّنعة، وأطبق بأبواب التعسّف والتكلّف، فهو أوضح منارة، وأقرب منهاجا، وأسهل سبيلا، متشابها متماثلا، بسبب الإعجاز فيه.[44]

ويبيّن الباقلّاني أنّ كلام الفصحاء، وشعر البلغاء لا ينفك من تصرّف في غريب مستنكر، أو وحشي مستكره، ومعان مستبعدة، وعدولهم إلى كلام مبتذل،[45] فضرب الباقلّاني لذلك مثلا عن قصيدة امرئ القيس:[46]

" قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ"[47]

قال الباقلّاني أنّه ذكر في هذه القصيدة على التّفصيل لمكانتها ومنزلتها من البلاغة، وبيّن الوجه الذي فوّت نظم القرآن محله، على وجه يؤخذ باليدّ، ويتناول من كثب، ويتصوّر في النّفس كتصوّر الأشكال، ليتبيّن ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن.[48]

ويزيد عن ذلك الإمام الباقلّاني على من قال من أصحابه إنّ الأحكام معلّلة بعلل موافقة لمقتضى العقل، وجعله وجها من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه، كنحو ما يعلّلون به الصلاة، ومعظم الفروض وأصولها، كأصحابه من أهل "خراسان" وولعهم بذلك، ولكن الأصل الذي يبنون عليه عنده غير مستقيم، ويوضّح الباقلّاني على ذلك الكلام في كتابه "في الأصول"، ويفصّل في ما أورده من معاني الزّيادة والإفراد، ويقول أنّ تلك الأمور مما قد يمكن اعتماده في إظهار الإعجاز فيه، ويقول أيضا لا نقول: إن وجه الإعجاز في نظم القرآن أنّه حكاية عن كلام الله، لأنّه لو كان كذلك لكانت التّوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله عزّ وجلّ معجزات في النّظم والتّأليف، وكذلك كان يجب أن تكون كلّ كلمة مفردة معجزة بنفسها.[49]

وبهذا القدر يكون قد بيّن ووضّح الباقلاني ما يرمو إليه من بيان وجوه الإعجاز القرآني والسّر الكامن فيه، فمهما اشتغل العلماء في بيان هذا الإعجاز، وإفناء جلّ حياتهم في البحث والاكتشاق والاستفسار والاستعلام سيجدون أنفسهم عاجزين عن إظهار ذلك الإعجاز، لأنّ كلّ ما اعتقدوا أنّهم وصلوا إلى معرفة الأسرار الرّبّانيّة في القرآن الكريم اكتشفوا أنّ معرفته قاصرة تحتاج إلى الاجتهاد والاستمرار.

الخاتمة:

نستنتج من خلال ما ذكر أن الإمام الباقلاني جعل دراسته لوجوه الإعجاز في تحديد العناصر البلاغية الخاصة بالقرآن الكريم، وإمعان النظر في الآيات القرآنية، وجعل هذا الوجه متعلق بالبديع والبلاغة وعلاقتهما بالإعجاز، وأن القرآن الكريم جاء مخالفا لما عاهدته العرب، من حسن الكلام وسلامة اللسان، وجزالة في الشعر والتصنّع في السجع والبديع، وقد جعل للوجه الثالث يتفرع منه عشرة وجوه كاملة كلها في البلاغة والنظم.

وفي الأخير من المهم الإشارة إلى جهود الباقلاني التي سادت ولا تزال في مجال الدراسات البلاغية والقرآنية، وأنه أسهمت بشكل مميز في دفع حركة البحث والتأليف حول القرآن الكريم، وبيان إعجازه، كما يمكن ضمه إلى جانب دراسات الإمام الجرجاني في وضع نظريات بيانية دقيقة تعنى بالخطاب القرآني ومناهجه.

الهوامش:

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1422هـ 2002م، ج3، ص364، / الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003، ج 9ص 63.

(2) الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ- 1998م، ج 3، ص 186.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1971م، ج4، 269.

(4) الزركلي، المصدر السابق، ج6، ص 176.

(5) غريش صادق، موقف الغزالي من آراء القاضي الباقلاني من خلال المستصفى، شهادة دكتوراه، إشراف: الدكتور يوسي هواري، تخصص فقه وأصول، 2015/ 2016م، ص24.

(6) أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، 2005م، ص47.

(7) أحمد جمال العمري، أبو بكر الباقلاني ومفهومه للإعجاز القرآني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط، السنة التاسعة، العدد الثالث، ذو الحجة 1396هـ / ديسمبر 1976م، المصدر السابق، ص17.

(8) سحر عطا الله محمد الحسبان، توظيف البحث البلاغي في إعجاز القران بين الرماني الباقلاني، ماجستير، جامعة آل البيت، كلية الآداب والعلوم قسم اللغة العربية، إشراف الدكتور، علي حسين البواب، ص 96، ص97.

(9) أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997م، ص35.

(10) فريدة سبايعي، تفاعل البنية التركيبية والبلاغية في العملية التواصلية (دراسة تطبيقية في اليتيمة الابن المقفع)، مذكرة ماجستير، إشراف الأستاذ: أحمد عزوز، جامعة وهران السانية، قسم اللغة العربية وآدابها، ص54.

(11) صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي (دراسة نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن)، دار الكتاب والحديث، 1423هـ . 2003م، المرجع السابق، ص99.

(12) غريش صادق، المرجع السابق، ص 46.

(13) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص35 ص50.

(14) سورة الزمر الآية 23.

(15) سورة النساء الآية 82.

(16) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر نفسه، ص 36.

(17) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص113.

(18) نعمان شعبان علوان، مقدمة في الإعجاز القرآني، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، غزة فلسطين، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، يناير 2010م، ص429.

(19) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص120.

(20) نعمان شعبان علوان، المرجع السابق، ص429.

(21) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص37.

(22) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص287.

(23) نعمان شعبان علوان، المرجع السابق، ص429.

(24) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص38.

(25) عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، دار الفكر العربي، ط1، 1974م، ص210.

(26) سورة الأنعام الآية 96.

(27) مصطفى الدباغ، وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار الزرقاء، الأردن، ط1، 1982م، ص18.

(28) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص188.

(29) سورة الأنعام الآية 95.

(30) عبد الكريم الخطيب، المصدر السابق، ص 211 ص 212.

(31) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص 38.

(32) سورة الإسراء الآية 88.

(33) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص39.

(34) سورة الأحقاف الآية 29.

(35) سورة الإنسان الآية 04.

(36) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر نفسه، ص41.

(37) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر نفسه، ص 42.

(38) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر نفسه، ص 42.

(39) حمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، ص 75، ص76.

(40) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص42.

(41) سورة الأنفال الآية 31.

(42) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر نفسه، ص43.

(43) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر نفسه، ص 44.

(44) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر نفسه، ص 45.

(45) الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص46.

(46) امرؤ القيس: مولده حوالي (500م)، وقيل (520م)، هو بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرا بن معوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع، بن معاوية بن كندة، وقيل اسمه حندج ن حنجر، حامل لواء الشعراء، أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل، (محمد رضا مروّة، امرئ القيس الملك الضليل، ص17، ص18).

(47) صاحب هذا البيت هو امرؤ القيس بن حجر، مطلع البيت: " قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ"، وهو من بحر الطويل، (امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1425 هـ - 2004م، ص21).

(48) الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص46.

(49) الباقلاني، إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص47.